الفصل التاسع

نظرة من قريب للثورة الإيرانية

لسنوات طويلة ظلت الدعوة للفصل بين الكنيسة والدولة تتردد فى أرجاء القارة الأوروبية نتيجة لممارسات الكنيسة الدينية والدنيوية من جانب وزيادة قوة وتأثير حركة التنوير التى صاحبت وأعقبت عصر النهضة الأوروبية من جانب آخر.

وجاءت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ لتحسم الصراع بين السلطتين الدينية والمدنية بصورة قاطعة بعد أن ظل مجرد أمل وتطلعات عبر عنها المفكرون والمثقفون خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وتحت أعلام الثورة المثلثة الألوان وشعارها الشهير «حرية إخاء مساواة» سقطت سلطة الكنيسة تماما وانحصر دورها فى الأمور الدينية ولم تتوقف حركة التاريخ عند هذا القدر من النجاح الذى أحرزته السلطة المدنية، بل كانت الثورة الفرنسية بداية الطريق وأتت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ التى اختارت الماركسية عقيدة ومنهجا، لتسقط الأديان وتنهى دورها فى حياة البشر ولتعلى من شأن الإلحاد الذى أصبح علما إجباريا يدرس فى كل مراحل التعليم ولأن الثوار الروس أبناء النظرية الماركسية كانوا يتوقعون صداما عنيفا مع الكنيسة الأرثوذكسية القوية وربما أشد شراسة من الرومانوف وأنصارهم لذا اندفعوا بكل قسوة يزيحون الكنيسة ورجالها عن الطريق وبكل الأساليب وداست عجلات الثورة ملايين المتدينين. وبذلك أتمت الثورة البلشفية الطريق الذى بدأته الثورة الفرنسية بالانحياز للسلطة المدنية ونفى السلطة الدينية.

وكان منطقيا طالما العالم يعيش عصر الحضارة الغربية أن تتأثر دوله بالتيارات الفكرية الأوروبية وهكذا بدأت دول كثيرة فى العالم الإسلامى تنهج نهج الدول الأوروبية فى الفصل بين الدين والدولة وجرى تكريس هذا الفصل فى الدساتير التى أقرتها سلطات هذه الدول وعاش العالم نتاج الصراع التاريخى بين السلطتين الدينية والمدنية فى أوروبا.

وبالرغم من بروز الكثير من الآثار السلبية للقيم المادية للحضارة الغربية فقد ظلت قضية الفصل بين السلطتين تجد قبولا من أغلبية المفكرين ولم يكن هناك ما يشير إلى احتمالات الربط بين السلطتين. ومن الإنصاف أن نشير إلى ظهور علماء ومفكرين وسياسيين نادوا

بالربط بين السلطتين. ومن الإنصاف أن نوضح أن هناك من بين المفكرين الغربيين خاصة من أكد الحاجة إلى القيم الروحية لإصلاح الخلل الذى أصاب المجتمعات الغربية من جراء إعلاء وسيادة القيم المادية. ومع استمرار حركة التاريخ فإن أحدا لم يتوقع ردا تاريخيا على الثورتين الفرنسية والروسية وإن كان هناك من توقع مثل هذا الرد فإننا نقول إنه لم يجد الانتشار الكافى ولم يكن له أى تأثير. ولكن ما لم يتوقعه أحد أصبح أمرا واقعا بعد نجاح الثورة الإيرانية التى أشعلها الشيعة بقيادة آية الله الخمينى عام ١٩٧٩ وعندما تم إقرار الدستور الإيرانى الجديد بعد الاستفتاء عليه يوم ٧ ديسمبر ١٩٨٠ أعادت الثورة التلاحم بين السلطتين الدينية والمدنية وأصبح الفقيه هو الحاكم وهو من تسند إليه أمورالدولة.

ومن إرشادات الخمينى وتعاليمه المتكررة أن الوظائف لا تعطى إلا لمن يفقهون فى الإسلام ويؤيدون الثورة بغض النظر عن المعرفة العلمية والخبرة العملية!

أى أنه لم يمض أقل من قرنين على الثورة الفرنسية وأقل من قرن بالنسبة للثورة الروسية حتى أتى الرد التاريخى على الثورتين. فالثورة الفرنسية حققت الفصل بين السلطتين الدينية والمدنية والثورة الروسية الشيوعية كرست هذا الفصل ليس ذلك فقط بل نفت دور الدين تماما وها هى الثورة الإيرانية تأتى لتعيد التلاحم والربط بين السلطتين هذه الدورة التاريخية استغرقت ١٩٠ عاما وهذه السنوات لا تعد زمنا طويلا بالنسبة للتاريخ.

وعندما اكتملت هذه الدورة التاريخية كشفت لنا أن أوروبا لم تكن مؤهلة لمثل هذا الرد التاريخى كما أن الكنيسة التى استسلمت لما يبدو أنه قدرها لم تكن أيضا مؤهلة لمثل هذا الدور.

ولما كان الرد التاريخى وإعادة الربط بين الدين والدولة قد أتى من العالم الإسلامى ولأنه ينال من واحد من أهم دعامات الحضارة الغربية ولأن ترك الأمور تتحرك فى إطارها بدون تدخل قد يؤدى فى النهاية إلى مزيد من الشروخ فى جسم الحضارة الغربية كان طبيعيا أن تجرى دراسة الأمر بكل جدية لمواجهته بكل قوة لا حفاظا على حضارتهم فقط بل وخشية أن تمثل الثورة الإيرانية قوة محركة لحركة اليقظة الإسلامية التى بدأ العالم الإسلامى يشهدها منذ نهاية ستينيات القرن الماضى وحركة العالم الغربى لمواجهة أى تمدد للثورة الإيرانية بل وأى نجاح لها ومحاولة حصارها واستنزاف حيويتها كانت تمثل دفاعا عن كل ما تمثله القيم الغربية والأهم أنها كانت تعكس إدراكا حقيقيا لما تمثله الثورة الإيرانية

فقد أدرك المفكرون الغربيون أنهم أمام ثورة تاريخية كبرى لا تقل فى وزنها عن الثورة الفرنسية وتبينوا أن محاولة الثورة تصدير أفكارها يمثل تهديدا خطيرا وبقدر هذا الإدراك كانت قوة العمل المضاد.

ولأن الثوار الإيرانيين لم يتمكنوا من التخلى عن الأحلام الإمبراطورية التى ورثوها عن الشاه ونظامه، ولم يستطيعوا أن يؤكدوا الوجه الإنسانى للثورة فقد وقعوا فى سلسلة متصلة من الأخطاء أفقدتهم رصيدا هائلا فى العالم الإسلامى بصفة عامة والعالم العربى بصفة خاصة.

قراءة فى ملف الثورة

شكلت الثورة الإيرانية تهديدا للحضارة الغربية ككل بعد أن نجحت فى الربط بين الدين والدولة أو بين السلطتين المدنية والدينية لترد بذلك تاريخيا على الثورتين الفرنسية والروسية الأوروبيتين، اللتين انحازتا للسلطة المدنية تماما. وهذا الربط هدم دعامة من الدعامات التى تستند إليها الحضارة الغربية.

كما شكلت الثورة تهديدا للمصالح الغربية سواء فى المنطقة أو خارجها، بالإضافة إلى تهديدها للجمهوريات الإسلامية فى الجنوب السوفيتى والتى تمثل البطن أو الأرض أو المنطقة الناعمة للقوة العظمى الثانية فى عالمنا المعاصر قبل أن تنهار وتتفتت وتصبح مجرد تاريخ.

فبالإضافة إلى الحدود المشتركة فإن أذربيجان تتحدث اللغة التركية الآذرية. كما أن معظم سكانها من الشيعة.. هذا من جانب ومن جانب آخر هناك ما يمكن أن تثيره الثورة من آمال وتطلعات للخلاص من السيطرة الروسية أو بمعنى آخر السيطرة السلافية الأوروبية على العناصر الآسيوية فى الاتحاد السوفيتى استنادا إلى الدين أساسا وما حققته الثورة من نجاح.

ولكى تتضح أمامنا بعض أبعاد التهديد الذى شكلته الثورة الإيرانية للمصالح الغربية، فمن الضرورى أن نعلم أن التوازنات بمنطقة الخليج قامت على أساس ثلاث قوى متوازنة هى العراق وإيران والسعودية وعندما يختل هذا التوازن كانت القوى الغربية بقيادة الولايات المتحدة تتدخل لتصحيح هذا الاختلال.

ومن المعروف أن منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية تعد من أهم مناطق إنتاج البترول فى العالم كما تعد أهم مناطق المخزون الاحتياطى للبترول فى العالم. كما يشكل الخليج أهم ممر

مائى لحركة نقل البترول خاصة بالنسبة لليابان، وعندما حاول الشاه تحويل إيران إلى قوة إقليمية عظمى تملك القدرة على بسط نفوذها فى منطقة الخليج وشمال غرب المحيط الهندى تربصت به القوى الغربية حتى استنفدت النسبة الكبرى من دخل البترول لإمداده باحتياجاته من الأسلحة والمعدات والذخائر بل وأغمضت عينيها عن مشروعاته الذرية وسكتت وهو يبتلع جزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى بالخليج. لاستعراض قوته ونفوذه وشجعت تدخله العسكرى فى عمان لمواجهة ثوار ظفار الشيوعيين المدعومين من اليمن الجنوبى الدولة الشيوعية الوحيدة بالعالم العربى وقتذاك.

وعندما ضغط على العراق بورقة الأكراد واضطره إلى توقيع اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ والتى سلم فيها بالمطالب الإيرانية كانت الأمور مازالت مقبولة.

وعندما اندفع إلى الأمام على طريق التحول لقوة إقليمية عظمى والإخلال بالتوازن فى المنطقة، تم اقتلاعه والإلقاء به فى سلة مهملات التاريخ عام ١٩٧٩ ويبدو أن الثوار الشيعة لم يستوعبوا الدرس وتصوروا أنهم الأكثر ذكاء ودهاء لذا قرروا أن يمضوا فى نفس الطريق، طريق إيران كقوة إقليمية عظمى، مستندين لا إلى ثروة إيران البترولية فقط. بل وإلى مبادئ الثورة وأفكارها ولما كان من المنطقى أن تعمد الثورات إلى تصدير أفكارها ومبادئها ولما كان من العسير محاورة الثورة بمنطق المصالح أو بالمنطق أساسا. لأن الثورات لا تعتمد الحسابات فى سياساتها وتحركاتها بقدر ما تعكس اندفاع موجات عاطفية شديدة الحماس تجرف فى طريقها كل من يحاول أن يقف باحثا عن التروى أو مستهدفا العمل فى إطار الممكن أو ناشدا التوازن.

وكان من الممكن أن تجد الثورة الإيرانية نصيرا لها فى الشارع العربى يمكنها الاستناد إليه فى حركتها أو اندفاعها للصدام الحتمى مع القوى الغربية والجار السوفيتى لو أنها أدارت ظهرها لأحلام التوسع التى ورثتها عن الإمبراطور وأبدت الوجه أو الطابع الإنسانى لها، إلا أنها منذ البداية رفضت التخلى عن الجزر العربية الثلاث المحتلة وأعلنت تمسكها بما تحقق لها من مكاسب باتفاقية عام ١٩٧٥ التى وقعتها بالجزائر مع العراق. ليس ذلك فقط بل عمدت إلى استخدام ورقة الشيعة العراقيين لخلخلة النظام العراقى وزعزعة استقراره كمقدمة للسيطرة على العراق ككل. والسيطرة على العراق ككل تعنى الوصول إلى الكويت والشاطئ الغربى للخليج، حيث توجد آبار البترول السعودية والدول العربية ذات الكثافة السكانية المحدودة المنتشرة على امتداد هذا الشاطئ.

وهذه الدول تضم جاليات إيرانية قوية بالإضافة إلى الكتلة الشيعية بالمناطق الشرقية بالمملكة السعودية كما رفضت الثورة الإيرانية الاعتراف بحقوق الأقلية العربية فى منطقة خوزستان «عربستان» والأقلية الكردية فى الشمال وتحول الرفض إلى أعمال قمع اتسمت بالوحشية والعنف ضد هاتين الأقليتين وبنفس المنطق الإمبراطورى.

وبدأت الحرب ضد الأكراد فى الشمال فى ربيع عام ١٩٧٩ ولم تتوقف إلا بعد حصار العاصمة «مهاباد» يوم ٣٢ أكتوبر من نفس العام. وافتتح الثوار المعارك ضد سكان إقليم عربستان يوم ١٢ مايو ١٩٧٩ واستمرت حتى ٢٣ ديسمبر ١٩٨٠.. ولم تكتف الثورة الإيرانية بذلك بل مضت تبنى جسورا مع الجماعات والقوى الإسلامية المتطرفة بالعالم العربى لتستخدمها كحضانات لأفكارها ومبادئها وكأداة لزعزعة الاستقرار ولتكسب عبرها نفوذا داخل دول هذا العالم ولم تتورع القيادات الإيرانية عن إمداد عدد من هذه الجماعات بالسلاح والمال واستغلت إيران موسم الحج للدعاية لكل ما تمثله الثورة. وحاولت جهدها التأثير على الحجاج القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

وكان طبيعيا أن تصطدم المخططات الإيرانية أثناء موسم الحج بالإجراءات السعودية للحفاظ على الأمن وحماية الحجاج والأهم الحفاظ على شعائر الحج نقية ومبرأة من الشوائب الدنيوية.

وهكذا مضت الثورة تبدد كل الآمال المعقودة عليها لا كنتيجة لاتجاهها لتصدير أفكارها بل بسبب شوفينيتها وانحيازها للعرقية الفارسية وتكريسها للطائفية ولأطماعها فى التوسع على حساب الجيران وسعيها لتصفية حسابات تاريخية.

وعندما تبينت القوى العالمية والإقليمية حقيقة ما تسعى إليه الثورة الإيرانية تحركت للعمل للدفاع عن مصالحها، أو أمنها أو هما معا، وللحفاظ على التوازن الإقليمى فى منطقة الخليج.

التحرك الإيرانى.. وأهدافه!

ما هى أهداف إيران؟

والإجابة ببساطة ومن بيانات وتصريحات المسئولين الإيرانيين على اختلاف مستوياتهم ومن تقارير المراقبين، أن أهم الأهداف يتمثل فى:

– نشر مبادئ الثورة الإيرانية.

- التوسع النشط فى نشر المذهب الشيعى.
- التحول إلى قوة إقليمية عظمى لتكون لها كلمة نافذة فى سياسات المنطقة، وليصبح لها كلمة مسموعة عالميا عند تخطيط سياسات المنطقة سواء من أجل زيادة حجم المصالح أو حمايتها.. أى أن تشترك إيران مع القوى العالمية المؤثرة فى رسم سياسات المنطقة.

وبالنسبة للهدف الأول فقد عمل الثوار من أجل تحقيقه منذ اليوم الأول لنجاح الثورة، إلا أن حرب التدخل العراقية التى أطلقها صدام حسين حاكم العراق من عقالها فى سبتمبر ١٩٨٠ لحساب القوة العالمية عطلت مسيرة الثوار طوال فترة الحرب واستنزفت من طاقة وموارد إيران الكثير.

والآن وبعد أن انحسر الدور العراقى وبعد أن نالت إيران كل مطالبها فى شط العرب والمناطق الحدودية من العراق، أصبح فى وسع المسئولين الإيرانيين أن يعاودوا التحرك على طريق نشر مبادئ الثورة بحكمة أكثر وجموح عاطفى أقل.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى تطلع الإيرانيون للجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى، وتحركوا بشكل مكثف. وأنشأوا واشتركوا فى مجموعة من المنظومات الإقليمية مع دول المنطقة، ويدرك الإيرانيون أنهم يخوضون منافسة شرسة مع الصينيين والباكستانيين والسعوديين والأتراك، ولكن المنافسة الحقيقية مع الأتراك. أصحاب الجذور الضاربة فى أعماق المنطقة، والحاصلين على أنوار خضراء من العالم الغربى خاصة الولايات المتحدة لأداء دور الجسر بين العالم الغربى ودول هذه المنطقة، وقد اختار الغرب تركيا لأكثر من سبب ومن أهم هذه الأسباب قبوله لنمط الإسلام على الطريقة التركية.

أما بالنسبة للهدف الثانى وهو التوسع فى نشر المذهب الشيعى فقد تبين الملالى أن الطريق ملىء بالعقبات، فالغرب المنافق يتحرك على عدة محاور منها:
- دعم الشيعة والمذهب الشيعى بالقدر الذى يخدم أى صدام أو صراع أو تعارض مع السنة والمذهب السنى، وبما يحقق فى النهاية أكبر قدر من استنزاف للطرفين.
- حصار أى محاولة لزيادة نفوذ أو نسبة الشيعة بالجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى، لإتاحة الفرصة لإسلام تركيا العلمانية لاكتساب أكبر مساحة من النفوذ لحساب العالم الغربى فى النهاية، ومما يؤدى فى النهاية إلى خصم هذه الكتلة من الكل الإسلامى الذى يحرص على حرمانه من مصادر القوة.

- الاستمرار فى محاولات ترويض الملالى ودفعهم للدخول أو للاستمرار فى خدمة المخططات الاستراتيجية الغربية وبقدر ما يتحقق من ترويض، تتاح الفرصة لهم لنشر مذهبهم.

ولا شك أن الشيعة منذ إنشاء الدولة الصفوية عام ١٥٠٠، قد خدموا المخططات الاستراتيجية الغربية بنجاح، وكان انهيار الإمبراطورية العثمانية السنية المذهب واحدا من النجاحات التى أسهموا فى تحقيقها.

وبخلاف التوافق والاصطدام بالمخططات الغربية، فهناك هامش للحركة والمناورة حاول الإيرانيون أن يستغلوه لحسابهم، ومن خلال حركتهم للتوسع فى نشر المذهب الشيعى اصطدموا لا بالسنة فقط بل وبقلعة السنة فى العالم الإسلامى وأعنى الأزهر.

وحاول الإيرانيون الالتفاف حول الأزهر وقدموا عشرات الاقتراحات للمسئولين المصريين منها إنشاء مراكز ثقافية إلا أن هذه المحاولات لم تحقق أى قدر من النجاح، فقد أدرك المصريون حقيقة الأهداف الإيرانية وأنهم قدروا أن اتخاذ مصر نقطة ارتكاز سيساعد لا على نشر المذهب فى مصر، بل سيؤدى إلى فتح أبواب الشمال الأفريقى بالإضافة إلى دعم أية محاولات لاختراق أفريقيا.

وإذا تتبعنا محاولات إيران لتحقيق هدف التحول إلى قوة عظمى، سنتبين أنها تواصل جهودها لبناء قوة عسكرية هائلة بما فى ذلك امتلاك أسلحة نووية.

ويمضى الإيرانيون على طريق دعم قوتهم الاقتصادية واستثمار الموجات العاطفية الدينية الكبيرة التى أطلقتها الثورة لرفع الروح المعنوية للمواطنين لحثهم على الاستمرار كقوة دفع هائلة من وراء هذا التحرك.

وبنفس القوة يعملون لزيادة ما يملكونه من أوراق بأيديهم ومن ذلك اكتساب مزيد من النفوذ فى المنطقة خاصة بالجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى، ومحاولة التوصل إلى اتفاق مع العالم الغربى، خاصة الولايات المتحدة حول زيادة حجم ومساحة الدور الإيرانى فى المنطقة.

وهناك دائما مساحة للاتفاق بين إيران والولايات المتحدة بالرغم من كل مظاهر الاختلاف بينهما، فإيران تمثل أهمية استراتيجية فى المخططات والسياسات الأمريكية، لا بالنسبة للموقع فقط رغم أهميته، ولكن بالنسبة للدور الذى تقوم به أو يمكن أن تقوم به فى إطار السياسات الأمريكية بصفة خاصة والغربية بصفة عامة.

والتطلـع لـدور القوة الإقليميـة العظمى كان من أهداف الشـاه قبـل أن يصبح من أهداف آيات الله.. وقد سعى الشاه طوال حياته لتحقيق ذلك، وهاهم الثوار يواصلون أداء نفس الدور.

ولكن هذا الدور يصطدم بسياسات وتطلعات وطموحات عربية.

ووفقا للحسـابات الإيرانية فقد اختفى العـراق ودوره كقوة توازن إقليمي تعمل لحماية منطقة الخليج بعد هزيمته المنكرة عام ١٩٩١ واحتلاله أمريكيا منذ عام ٢٠٠٣. أما المملكة العربية السـعودية القوة العسـكرية والاقتصادية التى يعتد بها فى شـبه الجزيرة العربية. فإنها بحسـابات توازن القوى لا يمكنها أن تتصدى أو تواجه وحدها قوة إيران العسـكرية أو كثافتها البشرية، أى أن إيران يمكنها ببساطة أن تبدأ وتواصل قضم المنطقة قطعة قطعة إذا مـا تخلت الولايات المتحدة وتخلى الغرب عن حمايتها، وهذا أمر لا يمكن اسـتبعاده فى المستقبل القريب خاصة بعد أن يتراجع دور البترول وتأثيره فى حركة الاقتصاد العالمى ويحول دون إيران والإقدام على ذلك الحضور والدور المصرى والقوة العسـكرية والاقتصادية والبشرية والاجتماعية المصرية.

فمصر بموقفها وكثافتها السـكانية تمثل الحائط الحقيقـى الذى تصطدم به المخططات الإيرانية لا بالنسـبة لهدف التحول إلى قوة إقليمية بل وبالنسـبة لهدف التوسـع فى نشر المذهب الشيعى.

وكان طبيعيـا أن تضـع إيران فى اعتبارهـا إزاحة مصر عن المسـرح أو تحييدها على الأقـل.. وما كل هذه المؤامرات ومحاولات دعم الجماعات السياسـية الإسـلامية لتكثيف عملياتهم داخل مصر إلا من أجل زعزعة اسـتقرار مصر وعرقلة كل مخططات التنمية بل ويمكن تصور ما هو أبعد، أى إمكانية وثوب هذه القوى إلى مقاعد السلطة ومحاولات إيران لإزاحة مصر. محاولات جادة وخطيرة وهى لم تكتف باختراق القوى الإسـلامية السياسية وتجنيد عناصر من العرب الأفغان. بل أقامت جسـورا مع عدد من دول حوض النيل فى محاولة لتكثيف الضغط على مصر.

أهلية رجال الدين للحكم على ضوء التجربة الإيرانية

سـنؤكد مرة أخرى أن الثورة الإيرانية من المنظـور العلمى والتاريخى ثورة كبرى وأنها أتت بعد ما يقرب من قرنين من الزمان لترد على الثورة الفرنسـية التى فصلت بين الدين والدولة لتعيد الربط بين الدولة والدين.

وإذا قلبنا فى أوراق التاريخ الفرنسى سنتبين أنه بعد سنوات طويلة من المخاض الأوروبى بصفة عامة والفرنسى بصفة خاصة أثمرت حركة التنوير التى شارك فى قيادتها كل من جان جاك روسو ومونتسكيو وفولتير وتراكم مشاعر الإحساس بالظلم التى عانى منها الفرنسيون سواء من الملك أو من مجموعة كبيرة من النبلاء والإقطاعيين أو من جانب الكنيسة، أدى إلى ثورة شعبية اقتلعت جذور الملكية وأطاحت بطبقة النبلاء والإقطاعيين وقضت على دور ونفوذ الكنيسة السياسى.

وكانت شعارات الثورة الثلاثة. حرية. إخاء. مساواة هى التعبير أو التكريس للإطار السياسى الجديد لدولة علمانية تعد الأولى فى التاريخ.

وكان منطقيا وطبيعيا أن ترفض هذه القوى الاستسلام. ولكن حركة أسرة البوربون الملكية ورجال الكنيسة وكل المناورات المضادة للثورة اتخذت من الخارج نقطة ارتكاز وانطلاق، ووجدت فى التحالف الأوروبى المضاد للثورة سندا وظهيرا. وبعد انحسار حرب التدخل وحروب الثورة التى امتدت لتشمل الساحة الأوروبية انقشع الغبار عن انتصار الثورة وشعاراتها، وبهذا الانتصار استقر الفصل بين الدين والدولة، ونتيجة لاشعاعات الثورة القوية كسبت الدولة العلمانية أرضا جديدة باستمرار، وتحول الفصل بين الدين والدولة إلى معيار للتقدم والتطور لم تأخذ به أوروبا وحدها، بل صدرته إلى باقى دول العالم.

وبدا أن حركة التاريخ تدفع بهذا النموذج للأمام نتيجة تراكمات أوروبية أساسا. فسيطرة الكنيسة طوال العصور الأولى أدت إلى الانحصار فى الموروث مما عطل حركة التقدم. وأدى إلى الجمود المميت والتخلف. إلى أن بدأ عصر النهضة، وظلت الذاكرة الأوروبية متخمة بذكريات سطوة باباوات الكنيسة وسيطرتهم على مقدرات الممالك والإمارات والدوقيات وبسيطرة الملوك واختياراتهم. وما تخلل ذلك من مؤامرات ومناورات ودسائس كان معظم الباباوات طرفها فيها.

ولم تكن محاكم التفتيش والضغوط التى مارستها الكنيسة على العالم كوبرنيكوس ومحاكمة جاليليو إلا صفحات سوداء فى تاريخ الكنيسة الأوروبية.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن التاريخ الإسلامى لم يعرف ما عرفته أوروبا من دور سياسى للمسجد أو للفقهاء والعلماء المسلمين حتى يمكن المقارنة عند الحديث عن فصل الدين عن الدولة. فالحقيقة التاريخية الواضحة أن الحكام المسلمين منذ العصرين الأموى والعباسى آثروا الانفراد بالسلطة وإبعاد العلماء والأئمة والفقهاء والاكتفاء بالحاشية ورجال البلاط.

obeikandl.com

وخلال عدة عقود أصبح الفصل بين الدين والدولة من المبادئ الرئيسية للفكر السياسى والحياة السياسية فى العالم الغربى.

وإذا كانت الثورة الفرنسية التى صاغت شعار حرية، إخاء، مساواة، قد تركت للدين دورا فى حياة الفرد، أى جعلت الدين علاقة بين الفرد وربه فى إطار حرية العقيدة التى هى جزء من شعار الحرية، فإن الثورة الروسية التى سيطر عليها البلاشفة الشيوعيون عام ١٩١٧ حاولت القضاء على هذه المساحة من الوجود الدينى إعمالا وانعكاسا للإلحاد إحدى الدعامات الرئيسية للفكر الماركسى. وبثورة روسيا الشيوعية تحول الفصل بين الدين والدولة إلى نفى للدين والحفاظ على الدولة.

وإذا كانت أغلبية المؤرخين يرون أن القرن التاسع عشر قد بدأ مع عام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ فإن ذلك يعنى أن هذا القرن قد أطل بمبدأ الفصل بين الدين والدولة، وبعد قرن من الزمان تقريبا أى فى عام ١٩١٧ (الثورة البلشفية) قدمت أوروبا للعالم نموذجا للدولة العلمانية التى نفت الدين، وحولته من عقيدة أو علاقة بين الفرد وربه إلى مجرد أفيون للشعوب.

وقبل نهاية القرن العشرين بسنوات قليلة وتحديدا عام ١٩٧٩ اندلعت الثورة الإيرانية وأعادت الربط بين الدين والدولة، وربما يرى المؤرخون أن تاريخ اندلاع الثورة الإيرانية هو البداية الحقيقية للقرن الـ ٢١.

وبذلك فإن الرد التاريخى على الدولة العلمانية لم يتأخر كثيرا، فقد احتاج لقرنين من الزمان فقط، ومثل هذه الفترة التى بلغت ٩١ عاما بالتحديد لا تعد بالفترة الطويلة تاريخيا.

وكان المتوقع أن يدرك قادة وزعماء الثورة الإيرانية، موقع ثورتهم التاريخى وما يمكن أن يسجله التاريخ لهم فيما لو قدموا للعالم وجها إنسانيا لنموذج الدولة الدينية الإسلامية أو فلنقل وجها أكثر إنسانية وعقلانية وتسامحا وطريقا يقود إلى التقدم والتطور بمبادئه المختلفة، من الوجه الذى قدمته الدولة العلمانية النموذج المقابل للدولة الدينية، وكان الأجدر بثورة ترفع رايات الإسلام أن تقدم للدنيا ما هو أفضل من شعارات الحرية والإخاء والمساواة. إذا كانت الدول الغربية قد تبنت هذه الشعارات وأعملتها وبنت تطورها الحالى على هذه الأسس، فلا شك أنها حققت الكثير من النجاح، ولكن المواطن هناك اشتدت

حاجته للجانب الروحى الذى افتقده فغلبة الجانب المادى لم تستطع أن تحقق له التوازن الذى يتطلع إليه وكان هذا التوازن الإضافة الحقيقية التى يمكن أن تقدمها الثورة الإيرانية ولكن ما هو متوقع أو ما تطلعت إليه القلوب المتعلقة بالإسلام، والقوى التى تريد أن يبرز الوجه الحقيقى للإسلام كدين للعدالة والتسامح والتسامى والذى غيبته قوى الحضارة الغربية عمدا، لم يتحقق، ويمكن القول بعد مضى أكثر من ثلاثين عاما على الثورة أن النموذج الإيرانى قد حقق فشلا تاريخيا ومن أهم ما أوضحه أن ولاية الفقيه أو إمساك رجال الدين الملالى بمقاليد السلطة والأمر والنهى بالرغم من حسن تنظيمهم وملكاتهم الفقهية لم تثبت صلاحيتهم لتحمل مسئولية الحكم فحسن التنظيم وتوافر التمويل أدى إلى صمود الملالى فى وجه الشاه، ونجاحهم فى السيطرة على مساحة كبيرة من الشارع السياسى، وفى النهاية نجاح ثورتهم، وملكاتهم الفقهية ساعدت على إثراء المكتبة الشيعية ولكن مسئوليات الحكم تتطلب ملكات أخرى، وقد أثبتت الأحداث أن رجال الدين خلال مشوارهم العلمى وهو طويل وشاق لا تتاح لهم فرصة للإلمام بشئون السياسة بكل علومها ودهاليزها.

هكذا كان الأمر وهكذا أثبتت تجربة الثورة الإيرانية.

ونعود إلى حصاد الثورة فمنذ الأيام الأولى لتولى الملالى مقاليد الأمور شنوا حربا على الأكراد فى الشمال الغربى وعرب خوزستان فى الجنوب الغربى، ليكشفوا بذلك عن الوجه العنصرى للثورة، وبدلا من التسامح انفتح الباب واسعا لاضطهاد السنة. وبإصرار الملالى على الاحتفاظ بالجزر العربية الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى كشفوا عن وجههم التوسعى، ولم يتمكنوا من إخفاء هذا الوجه وهم يصرون على التوسع على حساب العراق وخاضوا حربا على امتداد السنوات من ١٩٨٠ وحتى عام ١٩٨٨ ضد العراق من أجل هذه الأطماع والأهم من أجل تصدير مبادئ الثورة وتشكيل حكومة شيعية فى الجنوب العراقى لينفتح أمامهم الطريق لدول منطقة الخليج.

وخلال مواسم الحج المتتالية نظموا المظاهرات السياسية بالأراضى المقدسة مع ما فى ذلك من مخالفات دينية.

وليتهم بعد ذلك نجحوا فى ميدان الاقتصاد.. لقد كانت موارد البترول الكبيرة فيما لو أحسن استخدامها قادرة على دفع عجلة التنمية إلى الأمام، ولكن ما حدث فشل ذريع أدى إلى انهيار سعر العملة الإيرانية وقادتهم سياساتهم إلى العزلة الدولية وأدى تشجيعهم

للجماعات الدينية المختلفة سواء بالدول المجاورة أو غير المجاورة ودعم العمليات الإرهابية، أن أصبحت إيران واحدة من الدول التى ترعى الإرهاب فى العالم.

وفى الداخل تحالف الملالى مع رجال البازار والحزب الشيوعى وقوى سياسية أخرى أصغر حجما وحقق الحزب الشيوعى وعناصره المنظمة وكوادره المدربة جيدا قدرا كبيرا من النجاح فى الوثوب على الثورة وتوجيهها وتمكن من فرض تأميم الصناعات والمؤسسات والمنشآت الاقتصادية وبما ألحق أكبر الضرر بهذا القطاع الحيوى وأدى إلى انهياره وبعد الصدام مع الحزب الشيوعى وتصفية قادته بعد اعترافهم بالعمالة والخيانة وبعد انهيار الكتلة الشيوعية، رجع الملالى عن سياسة التأميم جزئيا وبدأوا فى تبنى سياسة الخصخصة.

ومازال لرجال البازار نفوذ واضح على الثورة ورجالها.. أما الصدام بين الأجنحة المختلفة للثورة فقد أدى إلى تصفية الكثيرين من رجالات الثورة وقادتها بأساليب شديدة الدموية والبشاعة. ومازال الصدام والمواجهات تحكم ما تبقى من أجنحة وتيارات وإذا كانت الثورة الإيرانية بموقعها من التاريخ قد فشلت فى تقديم النموذج المرتجى للدولة الدينية. فإن ذلك راجع إلى عدم أهلية رجال الدين أساسا لتولى المسئوليات السياسية أو مسئوليات الحكم.

الإرهاب وإيران.. الدوافع والأسباب

لو أننا نظرنا إلى خريطة الشرق الأوسط لمعرفة موقع إيران الجيواستراتيجى وما يمكن أن يوفره من إمكانيات تخدم طموحات «الملالى» وتطلعهم لنشر مبادئ ثورتهم والتحول إلى قوة إقليمية عظمى نافذة الكلمة والتأثير. فستتبين أن موقعها يمنحها إمكانيات كبيرة للسيطرة على مقدرات منطقة الخليج.

فإيران لا تطل على ساحل الخليج الشرقى فقط، بل تطل بكتلتها السكانية الكبيرة على منطقة ذات كثافة سكانية محدودة بالرغم من كل ما تملكه من ثروات فإن هذه الكتلة المحدودة ليست نسيجا واحدا متجانسا. فالوطنيون فى أفضل الأحوال يمثلون ٦٠ ٪ فى قطر والبحرين فى حين أنهم يشكلون ٢٠٪ أو أقل بالنسبة لدولة الإمارات. ومن بين هذه الجنسيات تبرز الجنسية الإيرانية بحضورها الفعال والذى يزداد فعالية بوجود كتلة سكانية وطنية يختلف حجمها من دولة إلى أخرى.

وإذا عرفنا أن معارك التخوم تحسم لصالح الطرف الأقوى لأدركنا أن إيران هى الطرف الأقوى ولكن التوازن كان قائما على ثلاث قوى هى إيران والعراق والمملكة العربية السعودية.. وبانهيار العراق عسكريا واقتصاديا فقد مثلث التوازن ضلعا من أضلاعه، وعند النظر إلى ضلعى المثلث سنتبين اختلال التوازن لصالح إيران.

والتوازن هنا ليس التوازن السكانى فقط بل العسكرى والاقتصادى والمعنوى والتنظيمى..

ويحول بين إيران والمضى قدما فى وضع مخططاتها موضع التنفيذ الحضور القوى للولايات المتحدة بصفة خاصة والغرب بصفة عامة. ولكن هذا الحضور لم يمنع إيران من السعى إلى ضم الجزر الثلاث طنب الصغرى والكبرى وأبو موسى. ولم يمنعها من تغيير الأمر الواقع فى جزيرة أبو موسى لصالحها ولأنه لا يمكن التغلغل داخل فكر الولايات المتحدة لمعرفة مستقبل مخططاتها لمنطقة الخليج خلال المستقبل بآجاله المختلفة. ولأنه من الصعب قراءة حقيقة الصفقات التى يمكن أن تعقدها إيران مع الولايات المتحدة حاليا أو مستقبلا، لذا فإن الثقة محدودة فى مظلة الولايات المتحدة بمعنى رهن الحاضر والمستقبل لحساب مخططاتها التى لا يمكن التنبؤ بإيجابياتها لصالح دول المنطقة وفى ظل حالة السيولة التى تمر بها وفى الظروف الدولية الحالية وانفراد قوة واحدة بقيادة العالم. وفى ظل تصاعد المطالبة بسيادة الديمقراطية والإعلاء من شأن حقوق الإنسان وحماية البيئة.

وهكذا نصل إلى أن إيران الطموحة والمتطلعة إلى دور القوة الإقليمية العظمى تمتلك أوراقا للسيطرة على منطقة الخليج. وأن الأمر لا يتطلب سوى الانتظار حتى تسنح فرصة أو فرص مواتية للانقضاض على الأمر الواقع لتغييره لحسابها. وانتظار إيران ليس انتظارا سلبيا بل عملا إيجابيا فى ظل رؤية واضحة للانفراد بالمنطقة وتحييد أو عزل أو إبعاد القوى التى تحول بينها وبين تحقيق أهدافها، وخلال الانتظار تعمل إيران بكل همة لزيادة عدد وقوة الأوراق التى تمتلكها وذلك بالتوجه إلى الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى للفوز بموطئ قدم بالرغم من المنافسة الضارية هناك مع كل من تركيا وباكستان.

وفى إطار تحييد وعزل وإبعاد القوى التى تحول بين إيران والانفراد بدول منطقة الخليج، قدرت إيران أن مصر هى الدولة الأهم التى يمكنها الحيلولة بينها وبين مخططاتها، فهى القوة الإقليمية ذات الموقع المتوسط المؤثر والتى تتوافر لها كثافة سكانية مؤثرة كما أنها دولة

obeikandi.com

تمتلك خبرات وقوة عسكرية فعالة نجحت فى حماية سوريا من التهديدات التركية عام ١٩٥٧ وأنقذت الكويت من جموح العراق تحت حكم عبدالكريم قاسم عام ١٩٦١ وكانت القوة الإقليمية الفعالة التى أسهمت فى تحرير الكويت من الاحتلال العراقى فى عامى ١٩٩٠، ١٩٩١.

لذا كرست إيران جهدا لدفع مصر للانكفاء داخليا وذلك بالعمل على زعزعة استقرارها وعرقلة مسيرتها التنموية الناجحة وكان منطقيا أن تستخدم إيران أعدادا من المصريين الذين تطوعوا للجهاد لتحرير أفغانستان بعد أن توقفت حرب التحرير وبدأت معارك الصراع على السلطة بين المجاهدين الأفغان..

والذى لا شك فيه أن إيران حاولت باستمرار إقامة جسور مع القوى والجماعات السياسية التى ترفع راية الإسلام فى مصر منذ استولى آيات الله على السلطة عام ١٩٧٩، ولكن بدء حركة الجهاد الإسلامى لتحرير أفغانستان وفر لها وعاء جيدا لتجنيد العناصر التى تساعدها على تحقيق أهدافها، وعندما امتدت فترة الجهاد لسنوات استغرقت كل الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضى، أتيحت الفرصة كاملة لكل القوى بما فى ذلك إيران لتطوير وتكثيف عمليات التجنيد والتدريب والتلقين والتمويل.

والذى لا شك فيه أن إيران إن حققت نجاحا فى هذا المجال سواء بسبب الشعارات الإسلامية التى رفعتها أو ترفعها والتى خدعت وتخدع ببريقها البعض أو بسبب وحدة الهدف، فقوى إسلامية سياسية من داخل مصر وخارجها سعت وتسعى لزعزعة استقرار النظام تمهيدا للوثوب على مقاعد السلطة، وكانت تبحث عمن يدعمها ويوفر لها ما تحتاجه أو نسبة مما تحتاجه من إمكانيات تساعدها على تحقيق أهدافها هذه القوى التقت أهدافها مع أهداف إيران، وكان منطقيا أن يتعاونا معا. وفى هذا الإطار ترددت قيادات من الجماعات الإسلامية المصرية على إيران خلال السنوات الماضية.

ونعود للقول إن إيران أدركت حقيقة العقبة المصرية التى تحول بينها وبين الانفراد بمنطقة الخليج، ولكن ذلك لم يكن كل شيء فمصر أيضا تشكل عقبة رئيسية بأزهرها ومؤسساتها الدينية فى وجه المخططات الإيرانية لنشر المذهب الشيعى لا فى منطقة الخليج فقط بل فى مصر نفسها وفى الدول العربية والإسلامية بالقارة الأفريقية.

والإيرانيون الذين يرفضون التخلى عن أطماعهم وطموحاتهم الإقليمية والمذهبية يمضون على طريق إبعاد مصر من طريقهم لذا فمن الصعب أن نتوقع أن تتنازل إيران عن مثل هذه

الأطماع فى المستقبل القريب للالتقاء مع مصالح مصر ومنطقة شبه الجزيرة العربية عند نقطة تمنع الصدام وتمهد لتعاون يحفظ للجميع سيادتهم ويحقق لهم القدر المقبول من المصالح.

وإذا كانت إيران قد استخدمت وتستخدم قوى الإسلام السياسى لزعزعة استقرار مصر فإنها ليست الدولة الوحيدة التى تفعل ذلك.

قوة إقليمية

أن تجد الثورة الإيرانية من يتعاطف معها، فذلك أمر يتفق والمنطق، فثورة بمثل هذه المكانة التاريخية وبمثل الشعارات التى ترفعها ستجد دائما من يعجب بها، وستجد من يقبل بها تطلعا لأمل يجمع صفوف المسلمين ويرفع من شأنهم ولا يمكن أن نطلب من الجميع دراسة المذهب الشيعى ونشأته وتطوره وعلاقاته خاصة الخفية بالقوى العالمية الكبرى وأجهزة مخابراتها ووزارات المستعمرات بها، كما يصبح عسيرا إقناع الجميع بالخطر الذى تمثله إيران لا على دول الخليج وشبه الجزيرة والعراق فقط بل وعلى مصر أيضا أما أن تجد الثورة الإيرانية من يروج لأفكارها ومبادئها ويدافع عنها ويبرر إجراءاتها وتحركاتها منكرا خطرها رافضا لحالة التنبه التى تعيشها مصر والتى تنعكس على موقفها من إيران الثورة، فذلك أمر لا يمكن أن يتفق والمنطق، ولا مع ما هو مفترض من أمانة على مصالح مصر وأمنها؟

ولما كان القائل من حملة القلم وبما أنه يعمل فى الحقل الإعلامى يفترض أنه درس الثورة الفرنسية وقرأ عن الثورة البلشفية وتابع ثورات أخرى كثيرة.. وبالتالى فهو يعلم بالضرورة أن ما من ثورة إلا وتعمل بكل قواها لتصدير أفكارها ومبادئها، بل تخوض الثورات الحروب من أجل تحقيق هذا الهدف، وتواجه الثورات دائما حروب تدخل تشنها القوى المعادية لها لمنعها من تصدير مبادئها ولوقف إشعاع أفكارها ولاستنزاف قواها وحصارها داخل حدودها..

أى أن الهدف الأول للثورات بعد نجاحها فى إزاحة النظم التى ثارت ضدها هو تصدير ما آمنت به، وما خاضت الصعاب من أجله.

والقول بأن الثورة الإيرانية لا تسعى إلى تصدير أفكارها ومبادئها قول لا علاقة له بالعلم ولا بالتاريخ ولا بالواقع فما أن سيطرت الثورة على مقاليد الأمور فى إيران حتى تحركت بكل قوة فى عدة اتجاهات.. وبدون ترتيب أو أولويات سنذكر بعضا من هذه الاتجاهات.

أولا: اتجهت الثورة بأبصارها إلى الدولة المجاورة العراق خاصة أن تركيبتها السكانية تضم ما يقرب من ٦٠٪ من الشيعة ولم تتوقف جهود الثورة حتى خلال الحرب العراقية التى اندلعت عام ١٩٨٠ أى فى العام التالى لنجاح الثورة وكان المخطط الإيرانى يستهدف إنشاء دولة شيعية فى البصرة والأمر هنا لا يقتصر على اقتطاع الجنوب العراقى. بل إن مثل هذه الدولة ستؤثر مباشرة على الكويت. وسيمتد التأثير ليشمل باقى دول الخليج وشبه الجزيرة العربية والوصول إلى البصرة أو إقامة دولة شيعية بالجنوب العراقى وهو الهدف الذى مازالت تعمل من أجله الثورة الإيرانية واستمرار السعى على نفس الطريق سيؤدى إلى إقامة حزام شيعى يمتد من إيران مرورا بالبصرة وصولا إلى سوريا التى يحكمها جناح شيعى يرفع رايات حزب البعث. ومثل هذا الحزام الشيعى يمثل متغيرا رئيسيا على خريطة منطقة الشرق وتهديدا لا لإسرائيل بل للدول العربية فى المشرق العربى.

ثانيا: بما أن لبنان كانت نقطة ضعف فى المشرق العربى نتيجة لأسباب كثيرة من أهمها الحرب الأهلية اللبنانية التى اندلعت عام ١٩٧٥ التى أدت إلى بروز دور شيعة الجنوب اللبنانى فقد اتجهت أنظار الثورة إلى لبنان وكانت الخطوة الأولى إرسال مجموعات من المتطوعين وانتهى الأمر بإنشاء حزب الله الشيعى الذى يخدم المخططات الإيرانية.

ثالثا: تصور القادة الإيرانيون أن الجمهوريات الإسلامية فى جنوب الاتحاد السوفيتى منطقة خصبة لنشر مبادئ الثورة. وما أن بدأوا نشاطهم حتى اتخذ بريجينيف رئيس الدولة السوفيتية وقتذاك قراره الخطير باحتلال أفغانستان بقوات سوفيتية لتحقيق هدفين رئيسيين:

- مساندة الحكومة الشيوعية فى كابول فى مواجهة المجاهدين بالدرجة الأولى والانقسامات الداخلية داخل صفوف الحزب بالدرجة الثانية.
- امتصاص حيوية الثورة واستنزاف قواها وتوجيه نظرها بعيدا عن الجمهوريات الإسلامية السوفيتية.

رابعا: دعم المجاهدين الشيعة فى أفغانستان لزيادة شوكتهم قوة فى مواجهة الأغلبية السنية من المجاهدين.

وإذا لم تكن هذه التوجهات وهذه المحاولات سعيا لتصدير الثورة فماذا تكون إذن؟ كما أن المظاهرات الصاخبة التى نظمتها إيران الثورة على امتداد مواسم متتالية للحج

والتى رفعت شعارات الثورة ورفعت صور الخمينى وهتفت له وهددت أمن وسلامة الحجاج وحاولت زعزعة الاستقرار الداخلى بالمملكة السعودية تمثل عملا من أعمال تصدير الثورة واستغلال مواسم الحج لتهريب السلاح لاستخدامه ضد السلطات السعودية. والاحتكاك والصدام بقوات الأمن السعودية والاجتراء على أمن الحجاج وأمن الحرمين الشريفين والقوانين والأعراف والتقاليد السعودية ألا يعد تصديرا للثورة؟ ثم إذا كان الشاه قد حاول أن يجعل من إيران قوة إقليمية عظمى، وفى إطار هذا المخطط استولى على جزر طنب الصغرى والكبرى وأبو موسى عام ١٩٧١ فلماذا لم يقرر الثوار الساعون لصداقة أهل المنطقة إعادة هذه الجزر إلى أهلها، لو كانوا حقا لا يريدون تصدير الثورة؟، ولكن وبدلا من إعادة هذه الجزر إلى أهلها لجأ الحكام الإيرانيون وبقرار منفرد من جانبهم إلى تغيير الأوضاع بجزيرة أبو موسى لحسابهم ولصالح مخططاتهم. ويعد سعى إيران المحموم لبناء قوة ذرية خطوة رئيسية لحماية دولة الثورة فى مواجهة كل القوى والأسلوب الأفضل لبسط النفوذ على كل دول المنطقة وفرض مبادئ الثورة كدستور لها، وإذا كانت إيران لا تستطيع مواجهة أمريكا أو حتى روسيا أو إسرائيل بقوتها الذرية فيما لو تحقق لها ذلك. أفلا يكون من حق دول العالم العربى أن تستنتج أنها المستهدف بتلك القوة؟ وأن ذلك سيؤدى إلى حصارها بين القوسين الإيرانى والإسرائيلى.؟

ومنذ فترة ليست بالقصيرة لاحظ المراقبون أن تصريحات عدد من المسئولين الإيرانيين المتعلقة بمصر أصبحت تتسم بالعدوانية فبجانب التطاول على مصر وطنا وشعبا طالبوا بدور لهم فى السياسة الأمنية للبحر الأحمر.

الحرب العراقية الإيرانية ولعبة الأوراق غير المكشوفة

ما أن تتفجر الثورة وتهدر أمواجها، حتى تهتز عروش أصحاب المصالح التى ولدت ونمت واستقرت فى ظل أوضاع ما قبل الثورة.. وتتناقض مواقف الذين يحرصون على استقرار الأوضاع وهؤلاء الذين قادوا الثورة من أجل تغيير جذرى يقتلع الواقع من جذوره تطلعا نحو حلم لا يشرق إلا على أرض واقع جديد لا تنبت إلا براعم الأمل.

ويصبح الصدام أمرا مقضيا.. حدث ذلك خلال الثورة الفرنسية وتأكد عندما اشتعلت الأرض الروسية بثورة البلاشفة. وبالتالى لم يكن صدام الثورة الإيرانية مع أصحاب المصالح أمرا استثنائيا أو مستغربا.

وإذا كان السوفييت قد اختاروا أسلوب التدخل بالغزو العسكرى لأفغانستان، فإن الغرب تحت قيادة الولايات المتحدة اختار أسلوب حرب التدخل لمواجهة الثورة..

وكان منطقيا أن يستخدم الغرب العراق كأداة لتنفيذ مخططاته. واندلعت الحرب فى سبتمبر عام ١٩٨٠. وكل طرف يتصور أنها الجسر الذى ستمر عبره الأهداف التى يسعى إلى تحقيقها، أى أنها كانت صراعا وسباقا.. صراعا ضد الثورة الإيرانية لحصار خطرها حفاظا على المصالح التى تعرضت للتهديد. وهنا تلتقى إرادة القوى الغربية والعراق.. وسباقا بين هذين الطرفين، كل طرف يسعى لتحقيق أهدافه من وراء خوض هذا الصراع.

وكان منطقيا أن يجهد كل طرف نفسه لكشف الأوراق التى يمسك بها، بالقدر الذى لا يؤثر على مسيرة الصراع. وإخفاء الأوراق التى تكشف حقيقة النوايا أو المخططات.

وهنا يجب أن نوضح أن كل طرف لا يكتفى بالتعامل مع الأوراق المكشوفة، بل يسعى بكل ما يملك من وسائل مشروعة أو غير مشروعة، لكشف الأوراق المخفاة.

وهنا تلعب الدراسات والحسابات والاستنتاجات وعمليات التجسس والاستقصاء، وما توفره من معلومات دورا رئيسيا لتعرية الطرف الآخر.

وإذا كانت هناك أهداف ظاهرة لا يمكن تغطية أوراقها، فإن هناك أهدافا أخرى لا يمكن البوح بأوراقها وما تحويه من أسرار.

ولنضرب مثلا.. فالغرب أراد من العراق أن يحارب بالنيابة عنه، ولكن ماذا عن مدة الحرب؟ وماذا عن الهدف أو الأهداف الحقيقية لها؟ وماذا يمكن أن يقدم لصدام حاليا ومستقبلا؟.. فالحرب كما حاولوا تصويرها، لن تستغرق فترة طويلة.. وهكذا اقتنع المسئولون العراقيون.

ولكن الغرب كان يريدها لفترة طويلة.. لماذا؟

أولاً: لاستنزاف حيوية الثورة والكثير من إمكانياتها البشرية والاقتصادية.

ثانيا: لإتاحة مساحة زمنية أكبر تسمح بظهور الصراعات بين الأجنحة المختلفة على السطح، والذى لاشك فيه أن قادة الثورة بالرغم من إيمانهم العقدى وثوريتهم وتسليمهم بزعامة الخمينى، إلا أنهم فى النهاية بشر، لكل منهم وجهة نظر أو اجتهادات تختلف فى نسبة منها مع الآخرين، كما أن لكل منهم أهدافه وطموحاته الخاصة التى يعمل من أجل تحقيقها، وإذا كانت مقولة الثورات تأكل أبناءها، قد ثبتت صحتها، فلماذا لا تطول

فترة الحرب حتى تأكل الثورة العدد الأكبر من بنيها؟.. وإذا كانت الثورات كما يؤكد كل من كتبوا عنها أو نظروا لها يشعلها المثاليون ويسيطر عليها المتطرفون، وأخيرا وبعد الخوض بقوة فى أنهار الدم وأوحاله بكل ما تعنيه من عمليات تصفيات جسدية، تستقر القيادة فى أيدى المعتدلين، وهذا أيضا يمكن أن يتحقق باستمرار الحرب.

ثالثا: استنزاف ثروة العراق واحتياطياته التى بلغت أكثر من ٧٠ مليار دولار قبل الحرب، وإغراقه فى الديون لعرقلة مسيرة التنمية وتكبيل تطلعاته وطموحاته بقيود الواقع، عندما تتوقف نيران المدافع والأهم تقليم أظافر التشدد العراقى.

رابعا: تسوية الحساب مع دول منظمة الأوبك التى أقدمت على رفع أسعار البترول، ومنع وصول البترول إلى بعض دول العالم الغربى عام ١٩٧٣ مما أدى إلى أزمة عانت منها شعوب البترول بالرغم من الحرب بين ثانية وثالثة الدول المنتجة للبترول.

خامسا: استنزاف النسبة الكبرى من الاحتياطيات المالية الضخمة لدول شبه الجزيرة العربية التى بدأت تشكل خطرا على الاقتصاد العالمى.

فقد نتج عن رفع سعر البترول بعد معركة أكتوبر ١٩٧٣ زيادة هائلة فى عائدات الدول البترولية، ولم تكن هذه الدول مستعدة أو قادرة على استيعابها، فلجأت إلى إيداعها فى البنوك والمؤسسات المالية الأجنبية.

وشكلت هذه السيولة الهائلة خطورة على الاقتصاد العالمى نتيجة حركتها غير الرشيدة فى معظم الأحوال، وتجنب المسئولون عنها السير على طريق استثمارها فى مشروعات صناعية أو زراعية تتيح فرصا جديدة للعمل، وتفضيل شراء نسبة من أسهم وسندات الشركات العالمية الناجحة والكبيرة.. ومثل هذه العمليات يمكن أن تؤثر سلبا على أسعار الأسهم والسندات، بل ويمكن أن تعرض شركات كبرى للانهيار، فيما لو تلاعبت القوى المالية الجديدة بهذه الأسهم أو حاولت استخدامها للضغط لتحقيق ما يمكن أن تضعه من أهداف.

وكان منطقيا أن تقدم الدول البترولية المساعدة للعراق سواء باعتباره يخوض حربا لحماية البوابة الشرقية للعالم العربى، أو لدرء خطر الثورة الإيرانية ومنعها من تحقيق أطماعها فى المنطقة أو استجابة لنصيحة يمكن أن تقدم من جانب دولة أو دول غربية، وعلينا أن نتذكر هذه التصريحات الإيرانية الملتهبة ضد بعض دولة شبه الجزيرة ومحاولة استغلال مواسم الحج اعتبارا من عام ١٩٧٩ عام نجاح الثورة.

وإخفاء الغرب لأوراقه الحقيقية الخاصة بطول مدة الحرب جعل القيادة العراقية تعتقد أنها ستحقق نصرا سهلا، وتحقق أهدافها من خلال حرب لا تستمر طويلا.

ولو تبين المسئولون العراقيون حقيقة الأمر في البداية. لراجعوا أنفسهم. أو لاختلفت مواقفهم ولكن كانت هناك أسباب مختلفة تمنعهم من إدراك حقيقة النوايا الغربية. من أهمها الرغبة القوية لإلغاء اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ وما تضمنته من تنازلات مهينة لإيران.

ولو تبين العراقيون الأمر ما اندفعوا في بداية الحرب باتجاه العمق الإيراني.. وكان هذا الاندفاع الملىء بالثغرات الاستراتيجية والتكتيكية، اعتمادا على أمل تدخل القوى الدولية السريع لوقف الحرب. وتوقف الحرب سريعا في ظل هذا الاندفاع. يعني نجاح العراق في احتلال مساحات كبيرة من الأراضي الإيرانية تعطيه أفضل الفرص والأوراق لمساومة إيران. وتعني انتصارا هائلا يرفع من مكانة القيادة العراقية داخليا وعربيا.

هكذا خطط الغرب..

وهكذا أخطأ العراق...

حرب التدخل.. والثورة الإيرانية

عندما تدافعت أمواج الثورة الفرنسية واكتسحت أمامها إمبراطورية أسرة البوربون، وتمكنت من شق طريقها نحو المستقبل بنجاح، تجمعت الجيوش لحماية المصالح الأوروبية التي تعرضت للتهديد. ونشب الصراع ضاريا بين قوى الثورة بكل ما تمثله من سعي جاد وحماسي وفوار لتغيير الواقع وتصدير مبادئها، والقوى الأوروبية المضادة الراغبة في حماية الاستقرار من تهديدات الثورة واندفاعاتها العاطفية لبناء واقع جديد.

وبالرغم من أن ميزان القوى كان لصالح الجيوش الأوروبية سواء بالنسبة لإعداد المقاتلين وخبراتهم أو للسلاح، إلا أن الحرس الثوري الفرنسي، حقق انتصارا كبيرا في فالمي.

وبهذا الانتصار تحقق للثورة ما أرادته من تأمين للاندفاع للأمام لإعادة صياغة حاضر ومستقبل القارة الأوروبية كمقدمة لمد نطاق تأثيرها إلى ما هو أبعد مكانا وزمانا.

وبعد أكثر من قرن من الزمان واجهت الثورة الشيوعية في روسيا ١٤ جيشا وبعد سلسلة من المعارك تمكن الحرس الأحمر من هزيمة جيوش التدخل سواء أكانت روسية أم أوروبية وأصبح يقينا علميا، أن الثورات تنتصر على القوى العسكرية التي تحاول عرقلة مسيرتها.

وينطوى ما يقرب من قرنين على الثورة الفرنسـية وأكثر من سـتين عاما بالنسبة للثورة الروسية الشيوعية قبل أن يحقق آيات الله نجاحهم الكبير فى إيران.

وبـكل قوة ينتفض الغرب لمواجهة الثورة الإسـلامية الشـيعية فى إيـران، ويقرر قادة الكرملين غزو أفغانسـتان الجار الشرقى لإيران لامتصاص حيوية الثورة ومنعها من ممارسة تأثيرها على المسلمين بالجمهوريات الإسلامية بالمنطقة الجنوبية للاتحاد السوفيتى.

ولا تلجـأ الولايات المتحدة والدول الأوربية الغربية لمثل هذا الأسـلوب المباشـر. ويقع اختيارهـا على العراق الجار الغربى لإيران ليخوض حرب تدخل بالنيابة عنهم كأسـلوب للتدخل غير المباشر.

ولقد توافرت كل الشـروط المناسبة فى العراق، فعلى رأسه حاكم قوى وطموح وله ماض فى التعامل والتعاون مع أجهزة المخابرات الأمريكية والإنجليزية، وهناك هذا الصراع بين الدولتين الجارتين حول الحدود والذى حسمه الشاه محمد رضا بهلوى لصالح إيران بإرغام العراق على توقيع اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ والأهم أن العراق دولة إسـلامية وذلك يعنى ابتعاد الغرب المسيحى بكل ما يمثله عن الاصطدام مباشرة بثورة إسلامية.

ولم يكن غائبا عن أذهان المخططين الغربيين حقيقة قوة الطرفين السياسية والاقتصادية والعسـكرية والاجتماعيـة والديموجرافية، أى عناصر القوة الشـاملة، ومثل هذه الحقائق كانـت تعنى ميل كفة الميزان لصالح إيـران، وإذا أضفنا العامل الهام والحيوى المتمثل فى أن إيران ثورة، والعراق قوة تدخل ضد هذه الثورة، فإن النصر لابد أن يكون حليفا لإيران إعمالا لعلم الثورات الذى استمد قواعده من السوابق التاريخية.

ولكن هل دبرت القوى الغربية حرب تدخل ضد الثورة، لتحصد الهزيمة والفشل؟

بالطبع لا..

فالحرب تم تخطيطها لاسـتنزاف الثورة الإيرانية وأيضا الثروة العربية النفطية، وإعادة التـوازن لميزان القوى فى المنطقة الذى اختل لصالح إيران، ولتحقيق هذه الأهداف لابد أن تستمر الحرب طويلا ولابد أن تنتصر حرب التدخل.

ولكن كيف؟

هنـا تظهر العوامل الجديدة التى لم يسـبق أن واجهتها أى مـن الثورتين الكبيرتين، الفرنسية والروسية، ومن أهم هذه العوامل: السلاح والمعلومات.. فالثوار فى فرنسا لم يكونوا

فى حاجة إلى من يمدهم بالسلاح أو المعدات، فقد كانت المصانع الفرنسية كفيلة بذلك، كما كان يمكن للثورة ورجالها إقامة مثل هذه الصناعة، فالأسلحة الرئيسية كانت السيوف والرماح بالإضافة إلى بنادق ومدفعية بدائية.

أما الفارق فى أعداد المقاتلين وكم الأسلحة أو حتى نوعيتها المتقدمة فلا يشكل عاملا فعالا، ففى مواجهته يتوهج الحماس والإيمان بقضية الثورة والاستعداد للبذل.

وهكذا كان الأمر بالنسبة للثورة الشيوعية، أما بالنسبة للمواجهة بين الثورة وقوى التدخل فى ثمانينيات القرن العشرين، فإنها تبدو جد مختلفة، وإذا نظرنا إلى حالة العراق وإيران فسندرك أن الطرفين لا ينتجان من الأسلحة والمعدات والذخيرة إلا نسبة محدودة من متطلبات المعركة الحديثة وبجانب التقدم أو الطفرة فى الصناعة الحربية المعاصرة، فإن حجم الاستهلاك أصبح هائلا، وقد بدت هذه الحقيقة واضحة على ضوء معركة أكتوبر ١٩٧٣، فمعركة واحدة على مسرح سيناء استهلكت ما يقرب من ٥٠٠ دبابة على الجانبين، بل إن يوم قتال واحد أسفر عن تدمير ١٨٠ دبابة على الجانب المصرى.

هاتان الحقيقتان تعنيان ضرورة اعتماد كل من إيران والعراق على مصادر أجنبية لتوفير متطلبات القتال.

وهنا تلعب هذه القوى الأجنبية دورها بمهارة لتقنين مجريات القتال على مسارح العمليات المختلفة.

وهناك عامل هام آخر فالرجال المسئولون عن التخطيط واتخاذ القرار فى حاجة إلى معلومات، والأمر الآن لم يعد مقصورا على الجواسيس أو عمليات الاستطلاع المختلفة لجمع المعلومات فقد تطورت عناصر توفير المعلومات بعد دخول عصر الفضاء، وتطور استخدامات الأجهزة الإلكترونية.

وإذا كان من الممكن أن تحصل الدولتان على الأجهزة الإلكترونية واستخدامها فى توفير المعلومات المطلوبة، فمن المؤكد أنهما يظلان بعيدين عن الأقمار الصناعية وقدرتها الهائلة على توفير المعلومات.

والدولتان اللتان تملكان القدرة على إمداد الطرفين بمعلومات من هذا النوع هما: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

واستخدام هذا النوع من المعلومات يمكن أن يؤثر سلبا أو إيجابا على مجريات الأمور. ولم تتوان أى من الدولتين خاصة الولايات المتحدة عن استغلال صور ومعلومات الأقمار

الصناعية لصالحها وصالح أهدافها. وبالعوامل الجديدة خاصة ما يتعلق بالسلاح والمعدات والذخائر. وبالمعلومات تمكنت القوى الغربية والاتحاد السوفيتى من إطالة فترة الحرب بما يكفى لتحقيق الأهداف المخططة وأيضا من منع إيران الثورة من الانتصار.

ولم يكن ذلك كل ما فى الأمر بل هناك ما هو أهم. فإذا لم يكن مسموحا للثورة الإيرانية أن تنتصر لأنها هددت مصالح الغرب والاتحاد السوفيتى فإن ذلك لم يكن كل شيء.

ويبقى أن نوضح أن إسلامية الثورة جعلت هزيمتها أمرا ضروريا، بعد أن أكدت أنها الرد التاريخى على علمانية الثورة الفرنسية وإلحاد الثورة الشيوعية.

أسباب الهزيمة الإيرانية

كان للأمريكيين دور كبير فى إنجاح ثورة آيات الله وإزاحة الشاه من الطريق ومنعه من استخدام حرسه الإمبراطورى القوى الجيد التدريب والتسليح بصفة خاصة والقوات المسلحة بصفة عامة لمواجهة عواصف الثورة التى كانت تهب على إيران بقوة.

ولأن للثورة منطقها وطريقها الذى لا يعرف ولا يعترف بصفقات الشارع الخلفى، فقد اندفعت إيران الخمينى تحقق الأهداف الأمريكية أو الغربية المخططة والمتوقعة. واندفعت أيضا وفى نفس الوقت وبسرعة لتهدد المصالح الأمريكية والغربية فى المنطقة، ولم يكن هناك من يقدر على وقف تيار الثورة الهادر الذى تحكمه العواطف بأكثر مما تحكمه الحسابات السياسية.

ولم يكن هناك على الجانب الآخر من يقبل بتجاوزات الثورة الإيرانية، حتى لا تسوء الأمور بشكل يتجاوز القدرة على الإصلاح.

ومضى المخططون يدفعون الأمور باتجاه حرب تدخل ضد الثورة، يكون العراق أداتها.

وفى سبتمبر ١٩٨٠ أطلق العراقيون الحرب من عقالها.

ووفقا لميزان القوى ولحسابات القوة الشاملة بكل عناصرها كان من المنطقى أن تنتصر إيران ولكن مثل هذا النصر كان يعنى التالى:

أولاً: ازدياد القدرة على تصدير مبادئ الثورة إقليميا وقاريا وعلى امتداد دول العالم الإسلامى.

ثانيا: تحويل العراق إلى دولة يحكمها ويسيطر على مقدراتها الشيعة تحت رايات الثورة الإيرانية، بما يعنى إضافة اقتصادية وسياسية وعسكرية ومعنوية كبيرة لإيران.

ثالثا: مد نطاق الحزام الشيعى من إيران شرقا إلى سوريا ولبنان غربا. مع العلم أن من يتربعون الآن على قمة النظام السورى من الشيعة العلويين.

ولم تخف إيران الثورة مثل هذه الأطماع فى مد نفوذها إلى هذه المناطق، وسارعت بإرسال مجموعات متتالية من المتطوعين إلى لبنان عبر سوريا لتحصل على موطئ قدم هناك، وكان ذلك هو الطريق لتكوين أو تشكيل حزب الله فى لبنان.

رابعا: انفتاح الطريق لتغييرات جذرية فى منطقة الخليج، فبعد السيطرة على العراق وامتداد الحزام الشيعى إلى البحر المتوسط ستصبح دول الخليج محاصرة من الشرق والشمال بالوجود الإيرانى، ومع وجود جاليات إيرانية وكتل سكانية شيعية كبيرة فى معظم دول الخليج تصبح عملية التغيير والتأثير لصلحة الأهداف والمخططات الإيرانية أمرا ممكنا.

وإذا تذكرنا أن إيران الشاه كان لها وجود قوى بالخليج بعد نجاحها فى احتلال الجزر العربية الثلاث أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى، فإننا سندرك كيف سيكون موقف أهل الخليج وما يمكن أن يسببه ذلك لهم من ذعر يجعل استجابتهم لمطالب إيران سريعة ومباشرة، هذا إذا رضيت إيران أن تتوقف عند حدود إملاء السياسات ولم تطمع فى المزيد.

خامسا: السيطرة على نسبة كبيرة من الإنتاج العالمى للبترول، فإيران والعراق هما ثانى وثالث الدول المنتجة للبترول بين أعضاء منظمة أوبك ويأتى ترتيبهما بعد السعودية مباشرة، وبجانب هذه النسبة ستتزايد قدرة إيران على التأثير على الدول المنتجة للبترول فى منطقة الخليج وبشكل يمكنها من فرض سياستها على سوق البترول فى العالم إنتاجا وتسعيرا، فمثل هذا النفوذ سيجعل كلمتها مسموعة وقوية داخل منظمة أوبك.

سادسا: هذا الانتصار وهذا الامتداد لابد أن يحقق تطلعاتها لتصبح قوة إقليمية عظمى، لها الكلمة النافذة فى محيطها الإقليمى وفى منطقة شمال غرب المحيط الهندى.

وبذلك يتحقق لإيران الثورة ما كان يحلم به الشاه محمد رضا بهلوى وعندما اقترب من تحقيق الحلم عملت الولايات المتحدة على إزاحته لإعادة التوازن إلى المنطقة.

سابعا: بالقوة الاقتصادية الجديدة نتيجة السيطرة على موارد العراق يتوافر لإيران إمكانات تكوين وتمويل جماعات إسلامية على اتساع دول العالم الإسلامى لمساعدتها على تحقيق أهدافها وتطلعاتها بصورة أفضل، قياسا بأداء هذا الدور فى حدود إمكانات إيران فقط.

ثامنـا: وهـذه القوة الاقتصادية أيضا سـتكون عامـلا مؤثرا لدعـم إمكاناتها وقدراتها العسـكرية بما يجعل إيران الثورة أكثر تشـددا وجموحا واندفاعا، بشـكل يمكن أن يهدد استقرار وأمن العالم وسلامه.

وإذا كان الانتصار الإيرانى مرفوضا لأسـباب تتعلق بإسـلامية الثورة ودورها التاريخى فـى الـرد على علمانيـة الثورة الفرنسـية وفصلها الدين عـن الدولة وعلى إلحـاد الثورة الروسيةالشـيوعية ونفيها للدين ولتهديدها لمصالح العالم الغربى فإن حسابات ما يمكن أن يترتب على انتصار إيران الثورة وهزيمتها للعراق = أداة حرب التدخل = شـكل قوة دفع هائلة لا لاستنزاف حيويتها ومواردها وإجبارها على اتخاذ موقف الدفاع بدلا من اندفاعها للهجوم، بل لدفعها لمواجهة هزيمة معنوية أساسـا تلحق العار بقيادتها خاصة قائد الثورة وزعيمها وإمامها آية الله روح الله الخمينى وتكشف عجزها أمام الرأى العام الإيرانى حتى تفقد قدرا من تأثيرها.

وعلى امتداد سنوات الحرب التى امتدت من خريف عام ١٩٨٠ حتى ربيع عام ١٩٨٨ تمكنـت الـدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة وبالتعاون مع الاتحاد السـوفيتى فى إطار قواعد الصراع والتنافس والتوازن من دفع إيران الثورة إلى مواجهة هزيمة لا تتفق والسوابق التاريخية وعلم الثورات، ولا تتفق ومنطق ميزان القوى وحسابات القوة الشاملة.

واضطـر آية الله الخمينـى أن يعترف أنه كان كمن يتجرع السـم وهو يوافق على قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨.

وإذا كانـت إيـران الثورة قد حققت قدرا لا بأس به مـن النجاح فى ميدان الصراع مع «الشـيطان الأكبر» الولايات المتحدة قبل أن تلحق بقواتها الهزيمة، فإن الحرب قد علمت الجيل الذى آلت إليه القيادة بعد وفاة الخمينى وبعد سلسلة التصفيات الجسدية المروعة التى تمت بين الأجنحة المختلفة، كيف يتعامل مع الواقع والمتغيرات على الساحة العالمية.

الهلال الشيعى

تعـد إيران من أقرب الشـعوب الإسـلامية إلى الدول العربية بسـبب التداخل الثقافى والدينـى والمذهبى، ولاشـك أن لهذا العامل الأخـير دورا مهمـا، وكان ولايزال الخلفية الأساسية لتحرك النظامين الملكى والجمهورى، غير أن أهميته تضاعفت عقب سقوط الشاه وإنشاء الجمهورية الإسلامية.

obeikandl.com

وقبل قيام الثورة كانت المؤسستان المتنافستان في إيران، أي القصر الملكي والحوزة الدينية، تعتبران العراق ولبنان ساحتين للتأثير السياسي والمذهبي، وفي العراق كانت السلطة الملكية الإيرانية وجهاز استخباراتها «السافاك» تصطدم عادة باستخبارات النظام البعثي غير أن التواصل بين مؤسسة رجال الدين الإيرانية في النجف وكربلاء لم ينقطع حتى في أحلك الظروف..

غير أن الثورة الإيرانية التي جاءت بشعارات إسلامية شيعية ثورية وتوحدت فيها السلطتان الدينية والسياسية أصبحت ذات قوة هائلة للتأثير ليس في ساحتيها التقليديتين اللبنانية والعراقية بل وبين الشيعة والعلويين في سوريا والسعودية ومناطق أخرى من العالم العربي، فيما اصطلح على أنه الهلال الشيعي في الشرق العربي.

ويبدو أن علاقة السلطة الإيرانية وحزب الله اللبناني تتجاوز أي علاقة أخرى بينها وبين القوى السياسية والدينية في العراق، إذ يقلد زعيم حزب الله مرشد الثورة الإيرانية دينيا وسياسيا، وتماثل هيكلية الحزب المؤسسات العسكرية في إيران. وحتى رمز الحزب يشبه رمز قوات الحرس الثوري الإيراني ويحمل مؤيدوه صور الزعماء الإيرانيين، الأمر الذي يعتبر من الممنوعات في المجتمع الإيراني أي أن هناك حساسية كبيرة لحمل صورة أي زعيم أجنبي في أي تظاهرة في إيران، وقد تختلف العلاقة حجما ونوعية بين إيران من جهة وحزب الله في لبنان والمرجعيات الدينية والسياسية الشيعية في العراق. أكثر من ذلك هناك فارق قائم بين المواقف السياسية لمرجع التقليد الشيعي في العراق آية الله علي السيستاني والفقهاء الحاكمين في إيران، فلا يقبل السيستاني بمبدأ ولاية الفقيه المطلقة وهيمنة رجال الدين على السلطة بل يبدو من خلال أدائه المشهود وتعامله مع القوى السياسية في العراق بأنه يرجح نوعا من الولاية النسبية التي تراقب وترشد من بعيد، وهذا ناجم بالطبع عن طبيعة المجتمع العراقي وتركيبته الدينية والإثنية والسياسية.

لكن هناك فروقا أخرى ينبغي أن نشير إليها هنا مثل شعبية آية الله السيستاني والأحزاب الشيعية في العراق وشعبية حسن نصرالله وحزب الله في لبنان، فالزعيمان لم يمارسا السلطة السياسية في بلديهما أي أنهما يعتبران قوى مقاومة أو معارضة إلى جانب الجماهير الشعبية أو بالأحرى أنهما لم يأكلا الثمرة الممنوعة حتى اللحظة، وهذا ما يميزهما عن مؤسسة رجال الدين في إيران حيث تولى معظم أفرادها مناصب مهمة في جهاز الدولة الإيرانية عقب قيام الثورة الإسلامية في فبراير ١٩٧٩.

فالموقف من السلطة هو الذى يوضح لنا موقف الجماهير تجاه المؤسسة الدينية فى كل من إيران والعراق ولبنان. فما نشاهده من شعبية واسعة لرجال الدين فى العراق ولبنان وخصوصا لدى السيستانى ونصرالله لا نراه فى إيران. شهدنا ذلك مطلع الثورة الإيرانية غير أن الحرب الدامية مع العراق والتى استمرت ٨ سنوات وقمع القوى السياسية المعارضة والتشدد السياسى والاجتماعى تجاه الشباب والنساء والقوميات غير الفارسية أدت أولا إلى انشقاق سياسى، وفكرى، فى المؤسسة الدينية فظهرت نزعات سياسية متباينة فى صفوفها، إصلاحية ومحافظة وقومية، وأدت ثانيا إلى انخفاض شعبية رجال الدين بشكل ملحوظ.

أطماع الثورة.. وأطماع الشاه

فاجأت السلطات الإيرانية العالم كله بشعار «فارسى إدارات منطقة»، لتعلن به أنها تمارس دور القوة الإقليمية العظمى الذى تراه حقا لها، وترى أنها الأجدر به، وأن أحدا ليس من حقه أن ينازعها هذا الحق. هكذا وببساطة وإحساس عارم بالثقة بالنفس، أعلنت للعالم وبشكل سافر أن لها الحق فى بسط نفوذها على المنطقة ويبدو أن أحدا من قادة إيران لم يستوعب درس الشاه، حيث قادته مثل هذه الأطماع إلى نهايته. ويبدو أنهم عجزوا عن قراءة درس صدام حسين الذى اندفع وخاض معركة مع الثورة الإيرانية من بين ثنايا مثل هذا الحلم، واستكمالا للمشوار الحلم قامر واندفع إلى الكمين الكويتى ليكتب بنفسه الفصل الأخير فى قصة الوهم الذى صنع منه طموحا.

وعلى هذا الطريق الذى اختاروه ورفعوا شعاره قولا، وكرسوه واقعا اتخذوا التالى:

- ❑ بناء قوة عسكرية تقليدية ضخمة مع الحرص على دعم هذا البناء بتخصيص مليارات الدولارات سنويا لشراء السلاح.
- ❑ إدخال الغواصات مياه الخليج، لتكون بذلك أول دولة تمتلك القدرة على الحرب تحت سطح الماء.
- ❑ السعى لدخول النادى الذرى.
- ❑ زيادة حجم القوات المسلحة والحرس الثورى باستمرار وتخصيص الميزانيات الضخمة العلنية والسرية لهما ولو على حساب اختلال خطط التنمية وزيادة نسبة التضخم وارتفاع الأسعار وتدنى مستويات المعيشة.

❑ دعم وبناء أحزاب وقوى سياسية مناصرة أو صديقة خاصة من الشيعة والحرص على إنشاء أجنحة عسكرية لهذه الأحزاب أو القوى وتوفير العناصر الصالحة للانضمام لهذه الأجنحة وزيادة كفاءتها بالبرامج التدريبية المكثفة والمتواصلة.. ومن أبرز النماذج حزب الله الشيعى فى لبنان.

❑ تكريس الجهود لبناء صناعة عسكرية استنادا إلى القاعدة التى كانت متوافرة قبل الثورة، مع تطويرها وفقا للإمكانيات المتاحة. وذلك لتوفير نسبة كبيرة من احتياجات القوات المسلحة والحرس الثورى وللحد من الحاجة للاستيراد من الخارج وما يترتب عليه من ضغوط واختناقات.

❑ تغيير الواقع بجزيرة أبو موسى من جانب واحد، مع التصدى بكل الوسائل لكل أنواع الاحتجاجات والضغوط دون التراجع عما تم اتخاذه من إجراءات على أرض الواقع.

❑ العمل بقوة وشراسة لإسقاط بيان دمشق الذى أفسح مكانا لكل من مصر وسوريا للمشاركة فى الحفاظ على أمن منطقة الخليج.

❑ دفع حزب الله للعمل من حدود لبنان الجنوبية لتوتر الموقف مع إسرائيل ورفع حدة التوتر باستمرار العمليات الموجهة ضد مستعمرات إسرائيل الشمالية، وضد مواقعها ودورياتها العسكرية بهذه المنطقة لإفشال عملية السلام وذلك إلى يوليو ٢٠٠٦ تاريخ بدء العمليات الإسرائيلية.

❑ دعم حركة حماس وجماعة الجهاد الإسلامى بالأراضى المحتلة استكمالا لمخططها الخاص بإفشال عملية السلام ولمحاولة الامساك بورقة فلسطينية.

❑ بدء عمليات هجومية سياسية وإعلامية ودبلوماسية ودينية ضد مصر ودول شمال أفريقيا للضغط على صناع القرار وصناع السياسة وزعزعة الاستقرار بها، ولم تكتف إيران بتقديم الدعم المالى أو توفير السلاح والتدريب للعناصر التى اعتمدت عليها، بل نقلت نشاطها إلى السودان وبعض دول منابع النيل لتكون قريبة من مواقع الأحداث.

❑ نشر المذهب الشيعى فى هذه الدول والعمل على تحويلها إلى نقاط ارتكاز لا لنسج المؤامرات فقط، بل لزيادة عدد المتشيعين فى المنطقة. واقتضى ذلك توفير الكوادر الصالحة لأداء هذا الدور، والاعتماد على العناصر المحلية الموالية لها.

- المنافسة بقوة على مواضع أقدام بجمهوريات الكومنولث الجديد، الذى تشكل على أنقاض ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى ودعم علاقاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية بهذه الدول. وترى إيران أنها صاحبة حق فى وراثة مساحة من النفوذ بهذه المنطقة لأسباب تاريخية وجغرافية ودينية. أما التاريخ فلأن الدولة الصفوية قد امتد نفوذها وبسطت سيطرتها على مناطق شرق البحر الأسود، وكانت تبليس عاصمة جورجيا الآن، مضيفا للإمبراطور الصفوى لسنوات طويلة. وصنعت الجغرافيا الطبيعية جوارا بين إيران وهذه المنطقة، أما الجغرافيا البشرية فتبين لنا هذا الانتشار السكانى لعدد من القبائل على جانبى الحدود. ويجمع الدين الإسلامى بين هذه الدول والأهم أن للمذهب الشيعى وجودا.

ومثل هذه السياسات والإجراءات وغيرها تصب فى عدة قنوات رئيسية من أهمها:

- توفير عناصر كافية للردع تطلعا للحصول على مكاسب ونفوذ دونما حاجة لاستخدام القوة العسكرية، ومن هذه العناصر إدخال الغواصات لمنطقة الخليج بالرغم من أن ميزان القوى يميل لصالح إيران دون الحاجة إلى مثل هذا النوع من الأسلحة، وبالرغم من أن كل الدول العربية المطلة على الخليج لا تمتلك مثل هذا السلاح. ومنها أيضا السعى لامتلاك سلاح نووى. هذا بالإضافة إلى ترسانة الأسلحة الضخمة التى تبنيها وزيادة حجم القوات العسكرية باستمرار.
- دعم الاقتصاد الإيرانى لتحمل أعباء دور القوة العظمى، وما إغراق السوق العالمية بالبترول الإيرانى دونما اعتبار لقرارات منظمة الأوبك. إلا وسيلة للحصول على ما يكفى من الموارد لتطوير الصناعة والزراعة ودعم الصناعة الحربية وتوفير الاعتمادات المطلوبة للقوات المسلحة ويدخل فى هذا الإطار أيضا السياسات الخاصة بالجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفيتى سابقا، وما تضمنته من إنشاء مجموعة من المنظمات الإقليمية لدعم العلاقات بهذه الدول التى لا تمثل أسواقا للمنتجات الإيرانية. بل وتشجع على دفع آلة الاقتصاد الإيرانى إلى الأمام، كما أنها تشكل سندا سياسيا فيما لو تطورت العلاقات مستقبلا.
- محاولة إبعاد مصر عن منطقة الخليج أو تحييدها على الأقل، فمصر بثقلها وبكل ما تمثله تقف عقبة أمام الطموحات الإيرانية، ولن تستطيع إيران أن تنفرد بالنفوذ إلا على حساب مصر، ولهذا خاضت إيران حربا شرسة ضد بيان دمشق، وضد أى احتمال لوجود

مصرى بالمنطقة، هذا فى الجانب الدفاعى. أما على ساحة الهجوم فقد وصلت إلى السودان وعدد من دول منابع النيل لتحقيق عدة أهداف منها نشر المذهب الشيعى وهذا خطر لا جدال فيه. لأنه يوفر لإيران مناطق نفوذ هائلة، ويعطيها مساحات للتأثير على صناعة السياسة والقرار بهذه الدول ومنها أيضا إثارة قلق مصر حول مياه النيل لمارسة الضغط عليها حتى يمكن مساومتها من أجل الابتعاد عن منطقة الخليج.

ـ الاستمرار فى مخططات إفشال السلام. بدفع حزب الله لتوتير الموقف مع إسرائيل. ودعم حماس وجماعة الجهاد الإسلامى لرفع درجة حرارة الموقف داخل الأراضى المحتلة. وصولا إلى إقناع الولايات المتحدة بالسماح لها بالمشاركة بدور فى سياسة المنطقة.

تهديد إيرانى للإمارات

بلهجة استعلائية وعدائية ومستفزة، قال على نجفدارى مستشار الرئيس الإيرانى موجها حديثه لدولة الإمارات العربية المتحدة إن القوات الإيرانية منقطعة النظير يمكن أن تحيلها إلى دولة هامشية لا وزن لها. وواصل حديثه ليشير إلى أنها قبل ٢٠ عاما لم تكن سوى مشيخة متخلفة، وأن رءوس الأموال الإيرانية هى التى أدت إلى تضخمها. وبعد أن مارس التطاول على دولة مستقلة ذات سياسة متجاوزا قواعد التعامل والتخاطب. أعلن أن إيران منعت سفر المواطنين إلى دولة الإمارات لمدة ستة أشهر. ولم ينس أن يطالب المسئولين بالإمارات بمعاملة الإيرانيين بشكل لائق. ولم يفته أن يجعل هذا التهديد المبطن واضحا ومفهوما.

وأكد المسئول الإيرانى الكبير أن المكانة الجيوستراتيجية والجوسياسية فى الخليج الفارسى ترغم جميع الدول المطلة عليه أن يكونوا فى حاجة ماسة إلى التعاون والتنسيق مع إيران.

وأشار إلى أن مضيق هرمز هو العمق والمنفذ الذى لا غنى عنه لدولة الإمارات.

وهذه المرة لم يكن التهديد للإمارات فقط بل لكل الدول المطلة على الخليج، وكانت الرسالة أن كل صادرات البترول وكل الواردات عبر مضيق هرمز عرضة للمخاطر إذا ما غضبت القيادة الإيرانية.

ولكن لماذا الغضب الإيرانى؟

ونقطة البداية عندما وجهت الدوحة الدعوة لعقد قمة عربية طارئة يوم الجمعة ١٦ يناير ٢٠٠٩ وقبل بدء أعمال قمة الكويت بثلاثة أيام، أوضح المسئولون بالإمارات أنهم

سيشـاركون فى أعمال القمة أو الاجتمـاع إذا لم يكتمل نصاب القمة وإذا لم تحضر إيران. وعندما أخبرهم المسئولون القطريون أن إيران ستشارك، اعتذر المسئولون الإماراتيون. وكانت لديهم أسبابهم، فإيران تواصل احتلال ثلاث جزر إماراتية، وتصر على البقاء بها.

ولأن الإمارات اعتذرت وأكدت إصرارها على استعادة سيادتها على هذه الجزر المحتلة غضبـت إيران، وعبرت عـن غضبها بهذه الصـورة الكريهة، وامتـد التهديد لباقى دول منطقة الخليج.

ومن المعروف أن الإمارات دولة معتدلة وحريصة على أمنها وأمان شعبها وأمن المنطقة، وقد اختارت طريق الحوار والعمل السياسـى والدبلوماسـى لاسـتعادة سـيادتها على هذه الجزر.. وبالرغم من هذا النهج المسالم اختارت إيران لغة الصلف والاستعلاء والتهديد.

التبشير فى أرض المؤامرات

لم تتوقف السلطات الإيرانية منذ نجاح الثورة عام ١٩٧٩ يوما عن التآمر على الآخرين سعيا وراء تحقيق الأهداف والتطلعات خاصة التوسع وبسط النفوذ وتصدير مبادئ الثورة.

ومثل هذه النظم التى تختار الصدام مع الجميع نكون دائما هدفا لمؤامرات الآخرين.

وكثـيرا ما تسـتخدم القيادات والزعامـات الدينية منطق التآمر من أجل حشـد القوى الوطنية من خلفها لمواجهة الأجنبى.

وبالـكاد لا يمر يـوم واحد من دون أن تزعم القيادة فى طهران أن النظام الحاكم يواجه مؤامرة أخرى، فتارة يأتى التهديد من الأكراد الذين يطالبون بالاستقلال وتارة أخرى يأتى الأذى من جانب البلوش بل وفى بعض الأحيان يكون البازار فى قلب المؤمرات.

والقائمة طويلة ومع ذلك فإن الادعاء الأخير الذى أتى من جانب أحد كبار الشخصيات وهو حيدر مصيلحى يتفوق على المزاعم الأخرى.

وقد جذب الإدعاء الذى تم الإعلان عنه فى خريف ٢٠١٠ الاهتمام لسببين:

أولهما: أن الشخص الذى قال بالادعاء هو أحد آيات الله، ويترأس وزارة الاستخبارات والأمن ويسيطر على الأقل على بعض الخدمات السرية للجمهورية الإسلامية.

ثانيهما: هو طبيعة الادعاء.

وهذا ما جاء على لسان مصيلحى: إن المبشرين الأجانب يستهدفون الطلبة الشيعة المتخصصين فى علوم الدين لا سيما فى قم. وقد نجحوا فى إقناع البعض منهم باعتناق المسيحية.

ولم يفصح مصيلحي عن جنسية هؤلاء المبشرين الأجانب ولكنه يؤكد أن تركيا قد أصبحت قاعدة لمحاولة دفع الأفراد لاعتناق الدين المسيحي، وهكذا يسافر طلبة العلوم الدينية من «قم» إلى تركيا للحصول على المعمودية إلى جانب المزيد من المعرفة حول العقيدة المسيحية. ويعود هؤلاء الطلبة المعروفون باسم «طلاب» إلى «قم» والمعاهد الشيعية الأخرى في الجمهورية الإسلامية كمسيحيين سريين مهمتهم تحويل زملائهم من الطلبة إلى الدين المسيحي.

بيد أن آية الله لم يفصح عما ينوي فعله بشأن هذا «التطور الكارثي»خصوصا أن الطلاب الشباب في «قم» يتلقون تعليما كافيا في فن التقية بما يمكنهم من إخفاء تحولهم إلى المسيحية بسهولة نسبية.

وحتى الآن لم تتخذ وزارة الاستخبارات أي إجراءات أكثر من مجرد توجيه تعليمات إلى الكنائس في إيران بعدم السماح بدخول أي فرد إليها من دون التحقق أولا من هويته أو هويتها الدينية.

ويبدو أن مهمة محاولة فعل شيء بشأن جماعة «طلاب» قد تُركت لعلي خامنئي المرشد الأعلى شخصيا. وبعد أقل من أسبوع من إصدار مصيلحي تحذيره، سارع المرشد الأعلى الذي نادرا ما يغادر حصنه في طهران إلى زيارة «قم» لإلقاء خطبة على «طلاب» حول مزايا تمسك المرء بدين آبائه.

والخطاب الذي ألقاه تناولته وسائل الإعلام الرسمية على نحو مكثف. وفيه حذر خامنئي مما وصفه «الغزو الثقافي» الذي ادعى أنه أشد صعوبة من الهجوم العسكري.

ولا يعد مصيلحي وخامنئي أول اثنين من الملالي يعربان عن مخاوفهما حيال أجراس الإنذار التي تتصاعد بشأن المسيحية، ففي القرن الـ ١٨ في وقت لم يكن المذهب الشيعي قد رسخ جذوره بعد داخل إيران، دعا الملالي مرارا إلى الجهاد ضد «الكفار الداخليين» وفي أغلب الحالات أسفر ذلك عن اقتراف مذابح ببعض القرى المسيحية، أما اليهود والمجوس فنجوا من ذلك لعدم وجود طموحات تبشيرية لديهم.

وحسب بعض الخبراء فإن «طلاب» ربما يبدون استقبالا جيدا لرسالة المسيحية نظرا للتشابهات بين الديانتين، فالمذهب الشيعي خصوصا الاثنى عشرية منه تبجل ثقافة الشهادة وغالبا ما يجرى النظر إلى الإمام الحسين الشهيد كشخصية قريبة لشخصية السيد المسيح في المسيحية باعتباره مدافعا عن الحق ويتعرض للخيانة ثم يقتل في النهاية على يد حاكم طاغية.

كمــا أن فكر المهــدى المخلص الذى يأتى آخــر الزمان يمكن مقارنتهــا بفكرة المجىء الثانى للمسيح.

والشيعة مذهب يمجد القديسين. ففى إيران وحدها هناك أكثر من ٧٠٠٠ مكان مصنفة باعتبارها تخص قديســين. وقد أضيفت القدســية إلى بعض الأماكن لأنها تحمل آثار أقدام فرس كان يمتطيه إمام ما، واكتســبت بعض الأشــجار قدسية لأن «قديسا» ما استظل بها، وتتمثل آخر هذه الأماكن المقدســة فى قرية جامكاران الواقعة جنوب العراق حيث يفترض أن الإمام المختفى يجمعه خط اتصال بداخلها مع المؤمنين، وكل عام يســافر أحمدى نجاد ووزراؤه إلى هــذه القرية لتقديم تقرير إلى الإمام المختفى ويجرى إلقاء برنامج الحكومة للعام المقبل فى بئر من المفترض أن يصل عبرها إلى صاحب الزمان.

وســنويا يذهب نحو ٢٠ مليون شــخص فيما يدعونه «حجا» لمثل هذه الأماكن للتوسل للشــفاء من مرض أو الحصول على مزيد من المال أو مجرد طلب المغفرة، والمؤكد أن بعض الذيــن يألفــون أماكن الحج المســيحية مثل المــكان القائم فى لورد بجنوب غربى فرنســا سيشعرون بألفة ببعض المناطق المقدسة فى طهران.

من جانبه اكتشف هنرى كوربان الخبير الفرنسى بالمذهب الشيعى الكثير من التشابهات بين المســرحيات الدينية المســيحية والتعزية الشيعية التى يجرى خلالها تصوير استشهاد الإمام الحسين ورفاقه الـ ٧١.

ومــن بين نقاط التشــابه الأخــرى وجود كهنوت مهنــى فى الجانبــين وفكرة عصمة الأئمــة والبابا، وهى تشــابهات قد تجتذب بعــض عناصر طلاب الجانحــة مثلما يعتقد مصيلحى وخامنئى.

وكان على شــريعتى الواعظ الذى اجتذب جماهيرية كبيرة داخل إيران فى ســتينيات القــرن الماضــى، مدركا لهذه التشــابهات ودعــا إلى إدخال تغييرات كــبرى على المذهب الشــيعى. ودعا إلى إلغاء الكهنوت كمؤسســة وعارض فكرة وجود قديسين والحج إلى أماكن مشكوك فى مصداقية ما هو منسوب إليها.

وربمــا أصبحت المســيحية تجتذب عددا من الطلاب أكثر ممــا قيل نتيجة عدم الرضا عن نظام اســتغل ويســتغل الدين لأغراض سياسية ولخدمة نســبة صغيرة من رجال الدين وشركائهم العسكريين.

□□□